﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩﴾ [ص: 18 - 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيتينِ لِما قبلَهُما:

في الآية السّابقة أمْرٌ للرَّسول ﷺ بالاقتداء بداوودَ عليه السلام في الصَّبْر، وفي هاتينِ الآيتَين بيانٌ لبعضِ فضائلِ داوودَ عليه السلام، وإنعامِ اللّه تعالى عليه بنِعَمٍ جعلتْهُ مُؤيَّدًا وقويًّا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَخَّرۡنَا﴾: (سخر) أصل يَدُلُّ على التَّذليل والاحْتِقار والاسْتِذْلال، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُنا: سَخَّرَ اللّهُ ﷻ الشَّيْءَ، وذَلِكَ إذا ذَلَّلَه لِأمْرِه وإرادَتِه، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجاثية: 13]. ويُقالُ رَجُلٌ سُخْرَةٌ: يُسَخَّرُ في العَمَلِ، وسُخْرَةٌ أيْضًا، إذا كانَ يُسْخَرُ مِنْه. ويُقالُ: سُفُنٌ سَواخِرُ مَواخِر. فالسَّواخِرُ: المُطيعَةُ الطَّيِّبَةُ الرّيحِ، والمَواخِرُ: الَّتي تَمْخَرُ الماءَ وتَشُقُّهُ[1]. والتَّسْخيرُ: سياقةٌ إلى الغرضِ المختصّ قَهْرًا، فالمُسَخَّرُ هو المقيَّضُ للفعل، والسُّخْريُّ: هو الذي يُقْهَر فَيَتَسَخَّرُ بإرادتِه، قال تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾ [الزّخرف: 32]. والمرادُ به في الآية: جعلُ الجبالِ مُطيعةً لأمره، ومنقادةً لتسبيحِه؛ إذ تُشاركُهُ التّسبيحَ والتّمجيدَ للّه تعالى.

2) ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾: (عَشَوَ) أصْلٌ يدُلُّ على ظَلامٍ وقِلَّةِ وُضوحٍ[2]. والعَشيُّ: النَّهارِ مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، وهو المقصود هنا، أو مِنَ الظُّهرِ إلى نِصْفِ اللَّيلِ، أوْ صَلاةِ العَصرِ، أو آخِرِ النَّهارِ، والعِشاءُ: هوَ أوَّلُ ظَلامِ اللَّيْلِ. وعَشْواءُ اللَّيْلِ: ظُلْمَتُه.

3) ﴿وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾: (شَرَقَ) أصلٌ يدُلُّ على إضاءةٍ وفَتحٍ[3]. والإشراق: مصدرُ أشرقَتِ الشّمسُ، أي: أضاءَتْ، يقال: شَرَقَتِ الشّمسُ شُروقًا: طلعَتْ، وأشرقَتْ: أضاءَتْ، وشَرِقَتْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سخر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عشو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرق).

- بالكَسْر - أخذَتْ ودَنَتْ للغُروب[1]. والإشراق: وقْتُ إشراقِ الشَّمسِ وسُطوعِها وصَفاءِ ضَوئِها، وهو وقتُ صَلاةِ الضُّحى، وهو غيرُ الشُّروقِ؛ لأنَّ الشُّروقَ هو وقتُ طُلوعِ الشَّمسِ، يُقالُ: شَرَقَت الشَّمسُ: إذا طَلَعَتْ. والمرادُ بـ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ في الآية إمّا خصوصُ وقتِهما المُعيَّن، أو الاستمرارُ في كلِّ وقتٍ على التّسبيحِ والتّمجيد ما سبَّحَ داوودُ لله تعالى.

4) ﴿مَحْشُورَةً﴾: أي: مَجموعةً. وأصلُ الحَشرِ: يدُلُّ على السَّوقِ والبَعث[2]، يقالُ: حَشَرَهُم يَحْشُرُهم ويَحْشِرُهم حَشْرًا، أي: جَمَعَهُم؛ ومِنْهُ يَوْمُ المَحْشَرِ. والحَشْرُ: جَمْعُ النّاسِ يَوْمَ القيامَةِ. والمَحْشَرُ: المَجْمَعُ الَّذي يُحْشَرُ إليه القَوْمُ، وكَذَلِكَ إذا حُشِروا إلى بَلَدٍ أو مُعَسْكَر أوْ نَحْوِهِ[3]. والحَشْرُ: إخراجُ الجماعةِ عن مَقَرّهم، وإزعاجِهم عنه إلى الحربِ ونحوِها. ولا يقالُ الحَشْرُ إلّا في الجماعة، قال الله تعالى: ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشّعراء: 36][4]. والمرادُ به في الآية: جمعُ الطّيور من أكنانِها له ومِن حوله؛ لكي تُرَجِّعَ تسبيحَه وتمجيدَه لله تعالى.

5) ﴿أَوَّابٌ﴾: أي: رَجّاعٌ توّابٌ، مِن قَولِهم: آبَ الرَّجُلُ إلى أهلِه: إذا رجَعَ[5]. وأصلُ (الأوْب): يدُلُّ على رُجوعٍ. وآبَ يَؤوبُ أوْبًا وأوْبَةً وإيابًا. والأوّابُ: التّائبُ. والمآبُ: المَرْجِعُ. والأوْبُ: سُرْعَةُ تَقْليبِ اليدينِ والرِّجْلَيْنِ في السَّيْر، والتَّأْويب: السَّيْرُ بالنَّهار أجمعَ، والنُّزولُ باللّيْل[6]. والمرادُ به في الآية: أنَّ الطّيور المجموعةَ له تَرجِعُ إليه لتُرَجِّعَ صوتَه بالتّسبيح والتّنزيهِ لله تعالى.

المَعْنى الإجْماليُّ:

في هاتينِ الآيتين الكريمتينِ ذِكْرٌ لِبَعْضِ فضائلِ داوودَ عليه السلام التي أيَّدَهُ الله تعالى بها؛ لشِدَّة إنابته لرَبِّه وعبادته، حيثُ سَخَّرَ اللهُ الجبالَ معه، تُسَبِّح معَه بِحَمْد ربِّها، وتُقَدِّسُهُ وتُنَزِّهُهُ أوَّلَ النَّهار وآخِرَه، كَما سَخَّر سبحانه الطَّيْرَ معه مجموعةً تُسَبِّحُ، وتُطيعُ تَبَعًا له.

(1) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفَّاظ: (شرق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حشر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حشر).
(4) الرَّاغب، المفردات: (حشر).
(5) ابن قُتَيْبة، غريب القرآن، ص: 378.
(6) الجَوْهَري، الصّحاح: (أوب)، والكَفَوي، الكُلِّيّات، ص: 209.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفصل في قوله: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا﴾:

عبّر النّظمُ الكريم بقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ﴾، وهي جملة استئنافيّةٌ مَسوقةٌ لِبَيانِ قِصَّة داوودَ ﷺ، أوْ لتعليلِ قوَّته في الدّينِ وأوّابيَّته إلى مَرضاتِه تعالى، وتقديرُ الكلام: اذْكُرْ فَضائِلَ داوود وما أنْعَمْنا عَلَيْهِ من تَسْخيرِ الجبالِ وكَيْتَ وكَيْتَ[1]، فتكون الجملة واقعَةً بَيانًا لِجُمْلَة: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا﴾، وهذه عِلَّة فَصْلِها. ويحتملُ أنَّها فُصِلت لـ(شِبهِ كمالِ الاتّصال)؛ إذ نشأ سؤالٌ من وصفِ داوودَ بالقوّة عن مصدرِها ونوعِها، فجاءتِ الجملةُ بيانًا لمصدرِ تلك القوَّة، وهو اللّه تعالى، ولنوعِها، وهي تسخيرُ الجبال والطّيرِ له.

اللّهُ تعالى مصدرُ القوّة والتّأييد

دلالات التّوكيد والإسناد و(أل):

أُكِّدت قدرةُ اللّه تعالى على تسخيرِ الجبالِ مع داوودَ ﷺ بـ(إنَّ، واسميَّة الجملة، وتضعيف الفعل)، وفي هذا دلالةٌ على مُطلقِ قُدرتِه تعالى، وإشارةٌ إلى أنَّ المُعجزاتِ الحِسّيةَ التي أيَّدَ اللّهُ بها رُسُلَه وأنبياءَه ﷺ إنَّما هي بِمَدَدِه سبحانه وبإذنِه. والتّأكيدُ أيضًا: "لِما طُبِعَ عَلَيْهِ البَشَرُ من إنْكارِ الخَوارِقِ؛ لِتَقَيُّدِهِ بالمَألوفاتِ"[2]، والتّعبيرُ بنون الجَمْع في: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا﴾ معَ إيرادِ الفعلِ مُضعّفًا تعظيمٌ لهذا التّسخير، وتفخيمٌ لشأنِه. و(أل) في ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾ للاستغراقِ الدّالِّ على الشُّمول العُرْفيّ، فَكُلُّ الجبال كانتْ تَذْكُرُ اللّه تعالى مع داوودَ ﷺ؛ اقتداءً به في عِبادةِ اللّهِ تعالى.

البَشَرُ مَجْبولٌ على إنكارِ الخَوارق

نُكْتَةُ التّقديم والتّأخير للظّرف:

ذَكَرَ اللّهُ تعالى مِنَ النِّعَمِ الَّتي خَصَّ بِها داوودَ ﷺ تسخيرَ الجبال مُسبِّحةً، وقد تقيَّد التّسبيحُ بالظّرف (مع)، وهو ظَرْفٌ دالٌّ على

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 567، والآلوسيّ، روح المعاني: 23/ 239.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 350.

أصالةُ داوودَ في التّسبيح، وتبعيّةُ الجبالِ والطّيور له في ذلك

المشاركة، مُتَعَلِّقٌ بِالفِعْلِ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾، ولَيْس ظَرْفًا لِلفعل: ﴿سَخَّرْنَا﴾؛ وقد قُدِّمَ عَلى مُتَعَلَّقِه هنا وفي سورة الأنبياء؛ لإرادة الاختصاص، لكنّه وردَ هنا متأخِّرًا عن ذِكْر ﴿ٱلْجِبَالَ﴾، فقال: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾؛ لإبراز القوّة التي تأيَّدَ بها، فكان ذكرُ الجبال أوّلَ الأمر دالًّا على موطنِ التّأييد والقوَّة التي جاءتِ الجملة لبيانها، في حين تقدَّمَ الظّرفُ على الجبال في سورة الأنبياء، حيثُ قال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: 79]؛ لِلاهْتِمامِ بِمَعِيَّتِه المَذْكورَةِ بِهِ؛ إظهارًا لكَرامَةِ داوُدَ عليه السلام[1].

دلالةُ الجملة الفعليّة المضارعيّة:

المخلوقاتُ بأسرها خاضعةٌ لربِّها

وقعتِ الجُمْلَةُ الفعليّة ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ في مَحَلِّ نَصْبٍ على الحالِ، وفي هذا بَيانُ ما أعْطاهُ اللّهُ لداوودَ عليه السلام مِنَ البُرْهانِ والتَّأييد والمُعْجِزَةِ، وهو تَسْبيحُ الجِبالِ مَعَه، أيْ: يُقَدِّسْنَ اللّهَ سُبْحانَه، ويُنَزِّهْنَه عَمّا لا يَليقُ بِهِ مَعَه بِصَوْتٍ يَتَمَثَّلُ لَهُ، أوْ يَخْلُقُ اللّهُ تَعالى فيها الكَلامَ[2]، وعبَّر عن الحال بالمُضارِع دونَ اسم الفاعل (مُسَبِّحاتٍ) الَّذي هو الأصلُ في الحالِ؛ لأنَّه أُريدَ الدَّلالةُ على تَجدُّدِ تَسبيحِ الجِبالِ مَعَه كلَّما حضَرَ فيها، ولاستِحضارِ تلك الحالةِ الخارقةِ للعادةِ مِن حُدوثِ التَّسبيحِ مِنَ الجِبالِ شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، وحالًا بعْدَ حالٍ؛ لأنَّها جَمادٌ. وكأنَّ السّامِعَ حاضِرٌ تلك الجبالَ يَسمَعُها تُسَبِّحُ، ويراها فيتعَجَّبُ مِن القدرة الإلَهيَّة[3]. قال مُقاتل: كان داوود عليه السلام إذا ذَكَرَ اللّهَ ذَكَرَت الجبالُ معه، وكان يَفْقَه تسبيحَ الجبال[4]. وأجاز البقاعيّ في: "﴿يُسَبِّحْنَ﴾؛ أنْ يَكونَ اسْتِئْنافًا؛ وأنْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 228.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 567، والشَّوْكاني، فَتْح القدير: 4/ 599.
(3) الزَّمخشري، الكَشَّاف: 5/ 250، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 188، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 567، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 228.
(4) القنوجي، فَتْح البَيان: 16/ 377 - 378.

يَكونَ حالًا، بِمَعْنى أنَّهُنَّ يَنْقَدْنَ لَهُ بِالتَّسْبيحِ؛ قالًا وحالًا؛ انْقيادَ المُخْتارِ المُطيعِ لِلَّهِ"[1].

نُكْتَةُ ذِكْرِ نونِ النّسوة:

تسبيحُ كُلِّ جَبَلٍ بِصَوْتٍ غَيْرِ مُشْبِهٍ للآخَر

وردَ الفعلُ المضارعُ مُسنَدًا إلى نونِ النُّسوة في قوله تعالى: ﴿مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾؛ إشارَةً إلى أنَّها فوقَ ما لَها مِنَ الصَّلابَةِ، صارَتْ في غايَةِ اللّينِ والرَّخاوَةِ، يُسَبِّحُ كُلُّ جَبَلٍ مِنها بِصَوْتٍ غَيْرِ مُشْبِهٍ بِصَوْتِ الآخَرِ؛ لِأنَّ ذَلِكَ أقْرَبُ إلى التَّمْييزِ؛ والعِلْمِ بِتَسْبيحِ كُلٍّ عَلى انْفرادِه[2]، ولذا قال البقاعيّ: "ولَمْ يَقُلْ: (مُسَبِّحَةً) أوْ: (تُسَبِّحُ)؛ لِئَلّا يُظَنَّ أنَّ تَسْبيحَها بِصَوْتٍ واحِدٍ؛ ليُشْكِلَ الأمْرُ في بَعْضِها"[3].

سِرُّ إيثارِ الظّرف على حَرْف الاختصاص:

تَبَعيّةُ الجِبالِ لـداوودَ عليه السلام واقتدائِها بِه في تسبيحِه

أوثِرَ الظّرفُ الدّالُّ على المصاحبة على حَرْف الاختصاص (له) في قوله تعالى: ﴿مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾؛ لِما أُشيرَ إليه في سورة الأنبياء في قوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: 79] من أنَّ تسخيرَ الجبال لم يكن بطريقِ التَّصرُّف الكُلّيّ فيها إليه، كتسخيرِ الرّيح وغيرها لسليمانَ عليه السلام، بل بطريقِ التَّبعيّةِ له والاقتداءِ به، قيل: كانَ تسخيرُها أنَّها تسيرُ معه إذا أرادَ سيرَها إلى حيثُ يريد[4].

الدّلالة بين الحقيقة والمجاز:

للجَماد إرادة، فالتّسبيح لا يكون إلّا بها

يحتملُ قوله: ﴿ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ الحقيقةَ؛ بأنْ خَلَقَ اللّهُ تعالى الكلامَ فيها، وذلك أمرٌ ممكنٌ، حيث جَعَلَها تتكلّمُ على سبيل الحقيقة، وفيها تشخيصٌ للجمادات؛ إذ "للجماد إرادةٌ؛ لأنَّ التَّسبيحَ لا بُدَّ أنْ يكونَ بإرادةٍ، ويدُلُّ على ذلك أيضًا قولُه تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ

(1) البقاعي، نَظْم الدُّرَر: 16/ 351.
(2) البقاعي، نَظْم الدُّرَر: 16/ 351.
(3) البقاعي، نَظْم الدُّرَر: 16/ 351.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 568.

وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾" [الإسراء: 44][1].

ويحتملُ إرادةَ المجاز فتكونُ هنالك استعارةٌ مكنيّةٌ تخيليَّة، حيثُ شُبِّهتِ الجبالُ بعاقلاتٍ يُسَبِّحنَ اللهَ تعالى، وفي هذه الاستعارةِ تشبيهٌ حِسّيٌّ جامد بِحِسّي حيّ متحرّك، وبناءً عليه تكونُ الجبال المنقادةُ المطيعةُ لأمره السّائرةُ بسيره كأنَّها تُسبّحُ بحالها دونَ مقالها، ويترجّحُ لدينا الأوّل؛ لأنَّ عذوبةَ صوته جَعَلتِ الجماداتِ تُحِسُّ وتنتشي بقدرة الله تعالى، حتّى إنَّها أخذتْ بالتّسبيح لله تعالى، وذلك أظهرُ دلالةً على قوله: ﴿دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾.

دلالةُ ذِكْرِ المتُعلّق:

لِفَضيلَة الأزْمنَةِ والأمْكنَةِ أثَرٌ في فَضيلَةِ ما يَقَعُ فيهما مِنَ العِباداتِ

في تَخْصيص هَذَيْنِ الوَقْتَيْنِ (العَشيّ والإشراق) بِالذِّكْرِ في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ دلالةٌ عَلى اخْتِصاصِهما بِمَزيدِ شَرَفٍ، فَيَصْلُحُ ذَلِك الشَّرَفُ سَبَبًا لِتَعْيينِهما لِلصَّلاةِ والعِبادَةِ، فَإنَّ لِفَضيلَةِ الأزْمِنَةِ والأمْكِنَةِ أثَرًا في فَضيلَةِ ما يَقَعُ فيهما مِنَ العِباداتِ[2]، كما أنَّ تخصيصَ الوقتين بالذِّكْر دالٌّ على أنَّ أوّل النَّهارِ وآخِرَه عامرانِ بالتّنزيهِ والتّسبيح لله تعالى، ويقتضي أنْ يكونَ باقي الأوقاتِ مشغولًا بهما أيضًا.

بلاغةُ الطّباق بين أوّل النّهار وآخره:

اغتنام الأوقات في ذِكْر الله دَأْبُ الأنبياء والصّالحين

في قوله تعالى: ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ طباقٌ بديعٌ بينَ أوّلِ النَّهار وآخِرِه، أوْ بينَ صلاةِ العِشاء وصلاةِ الضُّحى؛ دلالةً على استغراقِ تسبيح الجبال معَ داوود عليه السلام لِطَرَفي اللَّيل والنَّهار؛ إذِ الطّباقُ دالٌّ على وقتينِ بينهما تمانعٌ وتضادٌّ، فيكونُ التّسبيحُ إمّا مختصًّا بهما أوْ مُستغرِقًا لجميعِ الأوقات، فيدلّ الطّباقُ على ترشيحِ إرادة الدّوام والاستمرار.

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة (ص)، ص: 91.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 23/ 236.

سِرُّ التّقديمِ والتّأخير للعشيّ والإشراق:

فَضيلة العِبادة لَيْلًا

قُدِّم التَّسبيحُ ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ على التَّسبيح بـ(الإشراقِ) في قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾؛ لبيان فَضْل التَّسبيح والاستغفار في هذا الوقتِ، خصوصًا لِمَن اقترف ذَنْبًا في يومِه، فيتوبُ منه قبلَ أنْ ينامَ، فلا يُكْتَب عليه شيءٌ. وأيضًا لأنَّه "لَمّا كانَ في سياقِ الأوْبَةِ، وكانَ آخِرُ النَّهارِ وقْتَ الرُّجوعِ لِكُلِّ ذي إلْفٍ إلى مَأْلَفِه، مَع أنَّه وقْتُ الفُتور والاسْتراحَة مِنَ المَتاعِب؛ قالَ: ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾؛ أي: تَقْويَةً لِلْعامِلِ، وتَذْكيرًا لِلْغافِلِ. ولَمّا كانَ في سياقِ الفَيْضِ والتَّشْريفِ بالقُرْآنِ قالَ: ﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾؛ أيْ: في وقْتِ ارْتِفاعِ الشَّمْسِ عَنِ انْتِشابِ النّاسِ في الأشْغالِ؛ واشْتِغالِهِمْ بِالمَآكِلِ والمَلاذِّ، مِنَ الأقْوالِ والأفْعالِ؛ تَذْكيرًا لَهُمْ؛ وتَرْجيعًا عَنْ مَألوفاتِهِم إلى تَقْديسِ رَبِّهِم سُبْحانَه، ولَيْسَ الإشْراقُ طُلوعَ الشَّمْسِ؛ إنَّما هو صَفاؤُها وُضَوْؤُها؛ وشُروقُها طُلوعُه"[1].

دلالةُ الباءِ الجارّة:

استيعابُ الذِّكْر كُـلَّ الـعَـشيِّ والإشراق

آثرَ النّظمُ الكريمُ تعديَةَ فعلِ التّسبيح إلى اسم الزّمانِ بـ(الباء) الدّالّة على الإلصاقِ وضعًا في قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ﴾، دونَ حرفِ الظَّرْفيَّة (في)، وإنْ كانت متضمّنةً لمَعناها؛ لأنَّه أريدَ استيعابُ الوقت، فالباء تدلُّ على الاستيعابِ والإحاطة بوقتَي العشيّ والإشراق، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ﴾ [الحجّ: 29]، ولهذا لا بدَّ من استيعاب البيتِ بالطّواف والإحاطة؛ إذًا جاءتِ (الباءُ) مكانَ (في) للدِّلالة على الاستيعاب، يعني: كُلَّ العَشيِّ[2]. والأصلُ في الالتصاق أنْ يكون بمحسوسٍ، ففي الالتصاقِ بالزّمان دلالةٌ على اشتمال الزّمان على ذلك الفعلِ اشتمالًا كلّيًّا، وتشخيصٌ للزّمان

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 351.

(2) ابن عثيمين، تفسير سورة (ص)، ص: 88.

بجَعْلِه كالمحسوس من كَثْرةِ التّسبيح فيهما، حتّى صارا مكانًا يَلتصقُ الحدثُ به.

سرُّ التّغاير:

بقي أنّ (العشيّ) اسمٌ للزّمان المخصوص، حاصلٌ بعد (الإعشاءِ) بخلاف (الإشراق)، فإنّه مصدرٌ يدلُّ على (الشّروق) دلالةَ الفعلِ على الانفعال، ولعلَّ سرَّ التّغاير بينهما التّناسبُ معَ التّسخير للجبال الذي يلزمُ منه انفعالُها، فذُكِرَ العشيُّ معها دونَ الإعشاء، ومع التّسبيح للجبال الذي هو فعلٌ، فناسبَه الإشراق.

الموقع الإعرابيّ لقوله: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾:

حـالُ تسبيحِ الطَّيْر مع داوودَ عليه السلام

قولُه تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾ مَعْطوفٌ عَلى ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾، أوْ مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ دَلَّ عليه ما قبلَه، وانْتِصابُ ﴿مَحۡشُورَةٗۖ﴾ عَلى الحالِ مِنَ الطَّيْرِ، أيْ: وسَخَّرْنا الطَّيْرَ حالَ كَوْنِها مَحْشورَةً، أيْ: مَجْموعَةً إلَيْهِ، تُسَبِّحُ اللّٰه مَعَهُ[1].

سِرُّ العُدولِ عن الجملةِ الحاليَّة:

تَجَدُّدُ التَّسبيح، وثبوتُ الحَشْر

عُدِلَ عن الجملة الفعليّة الحاليّة ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ إلى الحال المفردة في قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾، حيثُ لَمْ يُقَل: (والطَّيرَ يُحْشَرْنَ)؛ لأنَّه ليس المقصودُ الدّلالةَ على تَجَدُّد الحَدَث، أي: الحَشْر، مِثْلَما كان في التَّسبيح مِن إرادة الدّلالة على الحدوث شيئًا بَعْد شيء، ولذا جيء به اسمًا لا فعلًا؛ للإشارةِ إلى ثبوت الحَشْر، "كَما أنَّه لو قيل: وسَخَّرنا الطَّيْرَ يُحشَرن، على أنّ الحَشْر يوجدُ مِن حاشِرِها شيئًا بَعْدَ شيء، والحاشرُ هو اللّٰهُ ﷻ لكان خلْفًا؛ لأنّ حَشْرها جملةً واحدةً أدُلُّ على القُدْرة"[2].

(1) الواحِديّ، التَّفسير البسيط: 19/ 173، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البَيْضاويّ: 7/ 189، والشَّوْكانيّ، فَتْح القدير: 4/ 560.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 4/ 81، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البَيْضاوي: 7/ 189.

الإسناد إلى الفاعل والمفعول:

جميعُ الخلائق تُعْلِن التّقديسَ والتّنزيه

نلحظُ أنّ النّظمَ الكريم أسندَ التّسبيحَ إلى الجبال، وصرّح بكونها فاعلَ التّسبيح، لكنَّه أضمرَ فاعلَ الحشرِ وجعلَ الطّيرَ مفعولًا للحشر في قوله تعالى: ﴿ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾؛ لأنّ ذلك أبلغُ في التّسخير وأوضحُ؛ إذِ التّسخيرُ جعلَ الجمادَ يتكلَّم في الزّمن، والحيوانَ المعروفَ بأفراده الكثيرة يجتمعُ في المكان لسماع تسبيح داوودَ عليه السلام - وهَذِهِ مُعْجِزَةٌ لَهُ لِأَنَّ شَأْنَ الطَّيْرِ النُّفورُ مِنَ الإِنْسِ[1] - ليُنشِدَ الجميعُ معه أحلى كلماتِ التّقديس للّه ربِّ العالَمين، ونتلمَّس في لفظ ﴿مَحْشُورَةً﴾ معنى البعثِ والإحياء والجمعِ من أمكنةٍ متعدِّدة، وكأنَّ تسبيحَ داوود عليه السلام وصلَها، فاجتمعتْ له وحضرت لديهِ طائعةً مُنقادَة، وذلك دليلُ القوّة والتّأثير في صوتِه ولَحْنِه الجميل، عندَما يُقدِّسُ اللّهُ تعالى ويُسبِّحُه ويعبُدُه.

الطّباقُ الجليُّ والخفيّ بين العشي والإشراق:

التّـوّابـون هـمُ الأقوياءُ حقيقةً

كما تحقّقَ الطّباقُ بين (العشيِّ والإشراق) الدّالّين على شمولِ التّنزيه للزَّمان كلِّه، يتحقّقُ الطّباق بينَ ذِكْر ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ باعتبارِ كونِها جمادًا، وذِكْرِ (الطّير) باعتبارِ كونِها حيوانًا مُتحرِّكًا، وبينَ (الزّمان) المُعبَّر عنه بالعشيِّ والإشراق، و(المكانِ) الَّذي يَستلزمُه الحشرُ والاجتماع، وفي هذا الطّباقِ بيانٌ صريحٌ عن كمالِ التّسخير المستلزِم كمالَ الإكرامِ والتّأييدِ والقوَّة، وما ذلك إلّا لأنّه أوّابٌ للّه تعالى، كثيرُ الرّجوع إلى مولاه الغَنيّ.

دلالة الفَصْل في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾:

الـجـزاءُ من جنس العمل

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ اسْتِئْنافٌ مُقَرِّرٌ لِمَضْمونِ ما قَبْلَهُ، مُصَرِّحٌ بِما فُهِمَ مِنهُ إجْمالًا مِن تَسْبيحِ الجبالِ والطَّيْرِ[2] دالٌّ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 229.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 567.

أنَّ الجزاءَ من جنسِ العمَل؛ فهو كثيرُ الرّجوع إلى اللّهِ تعالى، والجبالُ والطّيرُ كثيرةُ الرّجوع إليه، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ مَن كان رجّاعًا إلى الله تعالى، مُعلِنًا كمالَ الخضوع له؛ فإنَّ الكائناتِ بأنواعِها وأشكالِها تخضعُ له وتنقادُ مُسخَّرَةً لأمرِه، توفيقًا من الله تعالى وإكرامًا.

تصديرُ الجملة الاسميَّة بأداة الاستغراق:

صُدّرتِ الجملةُ الاسميّةُ في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ بكَلمة ﴿كُلٌّ﴾، وهي تدلُّ عَلى أصْل مَعْناها مِن الشُّمول والعموم العُرفيّين. أيْ: كُلُّ واحِدٍ مِنَ الجِبالِ والطَّيْرِ يرجعُ إلى داوودَ خاضعًا ومنقادًا ومطيعًا؛ لأنّه كان كثيرَ الرّجوع إلى الله تعالى بالتّوبة والعبادة.

كـلُّ الـخـلائـقِ تخضعُ للأوّابين

دلالةُ التّنكير في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾:

دلَّ التَنكيرانِ في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ على العموم والتّفخيم، إذِ التّنوينُ الأوّلُ عِوَضٌ عَن المُضافِ إلَيْه المحذوفِ إيجازًا وتَعميمًا. والتَّقْدير: كُلُّ المَحْشورَةِ لَهُ أوّابٌ، أيْ: كَثيرُ الرُّجوعِ إلَيْه، والتّنوينُ الثّاني أفادَ التَّفخيم، ونلحظُ التّقابلَ بين قوله فيما سبق: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وقولِه هنا: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ حيثُ عبَّر سابقًا عن داوودَ عليه السلام بالضَّمير الدّالِّ على الانحصار والتّعيين، وعبّر هنا عن الخلائقِ منَ الجبال والطّير بلفظِ النّكرة؛ للدّلالةِ على أنَّ كمالَ التّكريم للعبد أن تخضع له الخلائقُ مجتمعةً، فإنْ كان داوودُ عليه السلام بذاته راجِعًا أوّابًا، فإنَّ جميعَ الخلائقِ المذكورة ترجعُ له إكرامًا.

كـمـالُ التّكريم للعبد أن تخضع لـه الـخـلائـقُ مجتمعةً

مَرْجِعُ الضَّمير في ﴿لَّهُۥٓ﴾:

يحتملُ مرجعُ الضَّميرِ ﴿لَّهُۥٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وجهين؛ **الأوَّل:** أنّه راجِعٌ إلى اللّهِ ﷻ، والمعنى: كُلٌّ مِن داوودَ عليه السلام والجِبالِ والطَّيْرِ مُطيعٌ للّه تعالى، واللّام للتّقوية لا غير. **والثّاني:** أنه راجع إلى ﴿دَاوُۥدَ﴾، وحينَئِذ تحتمل (اللّام) أن تكون للتّعدية

طـاعـةُ الجِـبـالِ والـطَّـير لـداوودَ ظـاهـرًا ولـلـه تعالى باطنًا

والتّقوية، فتكون الطّيرُ والجبال آيةً لداوودَ ﷺ، راجعةً إليه مسبّحةً بتسخيرِ الله تعالى إيّاها له. ويحتملُ أنْ تكونَ للتّعليل، فتكون آيةً لله تعالى لِأجْلِ تَسْبيح داوُدَ إكرامًا له. والذي يترجّحُ لدينا الاحتمالُ الثّاني؛ لأنَّ الآية مسوقةٌ لإظهار قوّة داوودَ وكرامته عند الله تعالى، وأنْ تكون اللّامُ للتّقوية؛ لأنَّ كمالَ الإكرام أنْ تؤوبَ الكائناتُ له إكرامًا بتسخيرِ الله تعالى لها.

سِرُّ الإفراد في ﴿أَوَّابٌ﴾:

الإفـــــراد لـــلاحـــتراس، وإزالةِ الالتباس

عبّر النّظمُ الكريم عن الخبر بلفظِ الإفراد في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ للإشارة إلى شِدَّةِ زَجَلِها بالتَّأويبِ وعَظَمَتِه، ولإفادة الحُكْم على كُلِّ فَردٍ، ولو جُمِع لَطَرَقه احتمالُ أنَّ الحُكمَ على المَجموعِ يُقَيِّدُ الجَمْعَ، فَكَأنَّ داوُدَ ﷺ يَفْهَمُ تَسْبيحَ الجِبالِ والطَّيْرِ، ويَنْقادُ لَهُ كُلٌّ مِنهُما إذا أمَرَهُ بالتَّسْبيحِ؛ إذ كُلٌّ مَن تَحَقَّقَ بِحالِهِ ساعَدَهُ كُلُّ شَيْءٍ[1].

نُكْتَةُ التّقديمِ للجارّ والمجرور:

تـأيـيـدُ الأنـبـيـاء بالمعجزات قـوّةٌ مختصّةٌ بهم

عبَّر النّظمُ الكريم بالجارّ والمجرور مُقدَّمًا في قوله: ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ عَلى مُتَعَلَّقِه؛ لِلاهْتِمامِ بِالضَّميرِ المَجْرورِ، ولإرادة الاختصاص لداوودَ ﷺ بهذه المعجزةِ الفريدة، إذ كانَ من معجزاتِهِ ﷺ التي أيَّده اللّهُ بها، أنَّه متى ما سبّحَ وصلَّى لله تعالى؛ فإنَّ الجبالَ والطّيورَ تُسبِّحُ معَه، وتجتمعُ لديه لسَماعِ تسبيحاتِهِ وصلواتِهِ.

لطيفةُ العدولِ المادّيِّ والصّيغيّ:

التّنويهُ بأهميَّة التّوبةِ والرّجوع إلى الله تعالى

في النّظمِ الكريم وقعَ عُدولانِ؛ أحدُهما: مادّيٌّ يتعلّقُ بحروف الكلمةِ؛ إذ لم يقل: (مسبِّح أوْ مُرجِّع)، والآخرُ: في الصّيغة يتعلّقُ بهيئةِ الكلمة؛ إذ لم يقل: (يؤوب)؛ لأنّ مادّة ﴿أَوَّابٌ﴾ تحتملُ معنيين؛ أحدُهما: مُسَبِّح؛ إذِ الأوْبُ هنا الرُّجوع إلى التَّسبيح، والرَّجّاع إلى

(1) البَيْضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 26، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 353.

التَّسبيح مُسَبِّح. ووُضِعَ الأوّابُ مَوْضِعَه؛ لِأنَّها كانَتْ تُرَجِّعُ التَّسْبيحَ فهي مسبّحة[1]، وثانيهما: الرّجوع والخضوع والانقياد والطّاعة؛ وسواء كانت مسبحةً أو خاضعةً فإنّ مادة الأواب تدلُّ على الرّجوع إلى الله تعالى، فيكون في اختيار المادّة تنويهٌ بشأن التّوبة والإنابة والخضوع لله تعالى، ولأنَّ صيغة ﴿أَوَّابٌ﴾ من صيغ المبالغة، فتُفيد كثرةً ومبالغةً في الخضوع والتّوبة على سبيل الاستمرار والتّجدُّد، بخلاف الفعلِ (يؤوبُ) الدّالِّ على استمرار الخضوعِ من دون مبالغةٍ فيه.

دلالة الجناس في ﴿أَوَّابٌ﴾:

اشتملَ قولُه تعالى هنا على كلمة ﴿أَوَّابٌ﴾ في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وهي غَيرُ ﴿أَوَّابٌ﴾ في قَولِه قبلُ: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وهذا من الجناس التّامِّ؛ إذِ اتّحدَ اللَّفظانِ واختلف المعنيانِ؛ للإشارة إلى أهميَّة الرُّجوعِ إلى الله تعالى، الذي يترتّبُ عليه الخضوع والموافقةُ من الخلائق، فلَمْ تَتَكرَّرِ الفاصلةُ[2]، إذِ الفَرقُ بَيْنَه وبيْنَ ما قَبْلَه أنَّه يدُلُّ في أحدِ معنييهِ السّابقينِ على الموافَقةِ في التَّسبيحِ، والمُداوَمةِ عليه، والسّابقُ يدلُّ على الرّجوعِ والإنابةِ لله تعالى[3].

مَنْ آبَ إلى الله آبَتْ له المخلوقاتُ كرامةً

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 567، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 16/ 379.
(2) ابن عاشور، التَّحرير، والتَّنوير: 23/ 229.
(3) شيخ زاده، حاشية على تفسير البَيْضاوي: 7/ 189، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 16/ 380.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والأربعون،
سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 49 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-51-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 49 : المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-51-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1524626 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»